

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٣ —

الربانة المصرية — التأليه في العصور التاريخية

أثرت أقاصيص المعارك التي اشتعلت أوارها بين المصريين في عصور ما قبل التاريخ في نفوس بنائهم المصريين المدنيين تأثيراً دفعهم إلى تحويل هذه الأقاصيص الاجتماعية إلى أساطير دينية فرعموا أن «أوزيريس» — وهو إله الانبات والخصوبة وبالجملة إله النيل — قد استعان بأخته وزوجته «إيزيس» إلهة الحكمة والتشريع والسحر ورمز الوفاء والإخلاص، وبوزيره «توت» إله العلم والتدبير وبعض الآلهة الآخرين على تكوين مملكة إلهية عظيمة في مصر. وكان لهذا الإله أخ وهو «سيت» إله الشر والقحط والاجذاب فحقد عليه من أجل هذا الجلال الباهر الممثل في مملكته العظيمة الصافية، ولأنه لا يستطيع مجابهته وجها لوجه رهبة منه ورفقاً أمامه، فقد غدر به إذ احتال عليه بحيلة شيطانية حتى أدخله في تابوت كان قد صنعه خصيصاً لهذه الخديعة بحجة أنه يود أن يعرف سعة هذا التابوت، ثم أقفله عليه وقذف به في النيل فحمله التيار إلى المصب وسلبه إلى البحر الأبيض فحمله هذا البحر من المصب إلى «بيلوس» . وفي أثناء ذلك افتقدته زوجته الوفية فلم تجده، فأدركت ما حدث له، فصممت على أن تنقش عنه حتى تعيده إلى الحياة وإلا لحقت به، وظلت تجهد نفسها في البحث عنه حتى عثرت عليه وأعادتة إلى الدلتا وقبل أن تتمكن من فتح التابوت فاجأها «سيت» وتغلب عليها بقوته ثم مرق جسم أخيه أشلاء عددها اثنان وسبعون شلوا، التي بكل شلو منها في مقاطعة من مقاطعات مصر،

وكان عددها إذ ذاك يساوي عدد هذه الأشلاء، فلم يفت ذلك في شجاعة إيزيس ولم يضعضع من عزيمتها، بل ثابرت على جمع هذه الأشلاء المتناثرة حتى استكملتها ووضعت كل واحد منها في مكانه الطبيعي، ثم تلت عليه بعض ماعرفه من الرقي والتعاويد السحرية، فعاد إلى الحياة، ولكنها حياة لا تشبه الحياة الأولى، فلم يلبث على الأرض إلا بقدر ما أنسل «هوروس» ثم غادرها واستبدلها بمملكة الأموات العظيمة حيث أصبحت مهمته محاسبة أهل الدنيا ووزن أعمالهم وإصدار الأمر لهم أو عليهم بالتعيم أو بالجحيم

وقد استخلف على مملكة الدنيا من بعده ابنه «هوروس»، ولكن «سيت» عاد إلى مشاكسة هذا الإله الشاب من ناحية القانون فأعلن أنه ليس ابن «أوزيريس» لأن «أوزيريس» قد مات منذ عهد طويل، ولأنه من غير الممكن أن ينسل في هذه الفترة الوجيزة التي عاد فيها إلى الحياة على الأرض. وإذا فليس للعرش الإلهي وارث شرعي إلا هو. وقد رفع بهذه الدعوى قضية أمام محكمة الآلهة فهبت «إيزيس» تدافع عن شرفها، و«هوروس» يثبت بنوته من «أوزيريس»، ثم استشهدت الزوجة المتهمه والابن المجهود بالإله اللبق الفصيح «توت» فشهد بشرف الرالدة وشرعية الولد فحكمت المحكمة بالعرش المقدس لذلك الإله الشاب

وعما يلتفت النظر في هذه الأسطورة الشيقة هو أن «إيزيس» أثناء طيراتها للبحث عن أشلاء زوجها بكت حزنا عليه فسقطت من عينها دمة فوق النيل فزاد لساعته، وكان ذلك في شهر بوونة، فظل النيل يزيد في هذا الشهر من كل عام إلى اليوم. ومن الغريب أن يوم بدء هذه الزيادة يسمى في أرياف مصر إلى الآن بـ «يوم النقطة» أي نقطة الدمع التي نزلت من عين «إيزيس». فالنظر كيف أن هذه الثمانية آلاف سنة لم تستطع أن تمحو هذه الأسطورة من صحائف الوجود ١٩

روت بعض الأساطير المصرية الأخرى قصة «أوزيريس» و«هوروس» على نحو يخالف ذلك، ولكن هذه الرواية هي أصح الروايات أو بالحرى هي أكثر الروايات تنسيقاً على نظام الحقائق

يمثل أحد ذينك الإلهين المتنازعين ، وما زال هذا شأنهم حتى هب ذلك الفرعون العظيم : « مينيس » ، أو « مينا الأول » ، فكان أكثر جرأة وأعظم صراحة ، فأعلن في غير مواربة أن الإلهين كليهما قد حلا في جسده ، وأن جسمه يشتمل على الجوهر الأساسى أو روح القدس للإلهين جميعا ، وأنهما لهذا قد استخلفاه على ذلك العرش السامى الذى ظلما كان موضع نزاع بينهما ، وأنه حين يضع فوق رأسه تاج الوجهين : القبلى والبحرى ويضمهما تحت إمرته فى شىء عظيم من الحزم لا يزيد على كونه منفذا فعليا لأمر الإلهين .

وقد تم له ما أراد ، إذ أصبح إلها حيا جامعا بين القوتين اللتين ظلتا مفترقتين إلى عهده . ومنذ هذا العصر أطلق على « مينا » وأعقابها اسم الإله أو ملك القطرين أو اسم : « هوروس » ، و « سيت » ، أو مصدر الخير والشر ، والنور والظلمة ، والخصوبة والجذب ، وأصبحت زوجته تدعى بالملكة التى تحظى فى كل ليلة بـ « هوروس » ، و « سيت » ، ولكن « سيت » كان فى الأناشيد والأغاني يظل كامنا فى أغلب الأحيان ولا يبرز على مسرح الأساطير المصرية إلا فى حالات السخط والغضب ، أما فى الظروف العادية فلا ترى فى الأناشيد إلا فرعون مثلا لهوروس ، مشيدا بنعمه ، شاكرا لآلاته ، متحدئا على لسانه بعظمة مصر وعرشها عنده ، كما جاء فى هذه الأنشودة الموجهة إلى مصر : « تحية إليك يا مخلوقة « هوروس » ، التى زيتها بذراعيه مجتمعتين والتى لم يسمح لها بأن تخضع لسكان المغرب ولا لسكان المشرق ولا لسكان الجنوب ولا لسكان الشمال ولا لسكان الوسط المركزى ، وإنما له هو وحده فحسب ، أنت لا تخضعين إلا لهوروس الذى خلقك وأسسك ثم سواك وزينك ، وأنت تحملين إليه كل ما فىك من خيرات حاضرة ومستقبل وتقدمين إليه كل ما يشتهيه قلبه » (١) .

محمد غمرب

« يتبع »

(١) راجع كتاب الكسندر مورى : « من البطون إلى الامبراطوريات » صفحتى

ومهما يكن من شىء ، فإن أهم الملاحظات العظيمة القيمة فى هذه الأسطورة هو أن روح القانون والأنظمة الشرعية كانت سائدة فى مصر سيادة تامة حتى فى عهود ما قبل التاريخ ، ولولا ذلك لما طلب « سيت » عزل « هوروس » عن العرش بحجة أن بنوته من « أوزيريس » ، لم تثبت ، ولأن موته سابق على مولده هذا الإله الشاب بزمان طويل . ولولا سيادة هذه الروح القانونية أيضا لما اضطرت « إزيس » إلى الاستشهاد بـ « توت » على برامتها وبشرعية ابنها وأحقته فى العرش .

ويجمع على هذه الملاحظة كل العلماء الباحثين ويعدهونها برهان رقى الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية وإن كانوا يختلفون فى موضوع القضية الواردة فى الأسطورة فيذهب البعض إلى تأييد الراى الذى ذكرناه آنفا ، وهو أن الغاية من القضية كانت إثبات بنوة « هوروس » من « أوزيريس » بواسطة زواجه من أخته « إيزيس » ويرجعون زواج الإخوة بأخواتهم عند قدماء المصريين إلى هذه الأسطورة التى يقول البعض : إن « إيزيس » قد ادعت لها تبررها موقفها بعد أن ولدت « هوروس » من ناحية ، ولتمكن ابنها من الصعود إلى العرش بوسيلة شرعية من ناحية أخرى .

ويؤكد البعض الآخر من الباحثين أن القضية التى أقامتها « إيزيس » أمام محكمة الآلهة لم تكن لإثبات بنوة « هوروس » من « أوزيريس » وإنما قصدت بها إثبات حق ابنها « هوروس » فى العرش بحجة أنه ابنها هى ، وهى أخت « أوزيريس » ، الإله الراحل ، لأن احترام المصريين القدماء للراة كان يجعل الوراثة عن الخال أمرا محققا ؛ ولكن الذى لا شك فيه هو أن هذه الأسطورة على وجهها تشهد بالشوط البعيد الذى كانت مصر قد قطعتة فى المدنية حتى فى عصر ما قبل تكوين المملكة الأولى .

ظل ذلك النزاع الذى احتدم لهيه بين « هوروس » وعمه أو خاله « سيت » ، إله الشر والفنر رمزا لتلك الحروب العديدة التى كانت تقع من حين إلى آخر بين رؤساء مقاطعات الوجهين القبلى والبحرى زمنا طويلا تطورت بعده إلى فكرة أجراً من الرمز ، وهى أن كلا من الرئيسين المتحاربين أصبح